



نشرت قبل أيام كلمة صغيرة على صفحتي، لم أنشرها مقالة عامة ولا قدرت أن يقرأها غير مئات من الذين يتبعون الصفحة، فشرّقت وغرّبت وقرأها آلاف وعلق عليها جمّع غفير. وتابعتُ الزويبة التي أثارتها ظهر لي أن الأمر يحتاج إلى تعليق موسّع، فقد وجدت أن عامة الناس يقفون من العلماء ثلاثة مواقف، أوسطها معتدل صحيح، وعلى طرفيه نقىضان لا يصحّ أيٌّ منها ولا يجوز بقاوئه بلا علاج.

الأوستون - وأرجو أن يكونوا الفتة الأكبر - هم الذين ينثّلون علماءهم بالقبول فيقدّرون علم العالم وإخلاص المخلص منهم، فإذا أصاب تابعوه وإذا أخطأ نصحوه وقوّموه، لا يزهدّم خطّوه في علمه إن كان عالماً حقاً، ولا ينفضّون عنه ولا يتركونه جملةً ما دام مخلصاً ولو جانبَ الصواب أو أغرب في الاجتهاد.

على إحدى الجهاتين من هذا الفريق الأوسط نجد جماعة من المتابعين والمریدين الذين لا يجرؤون على التساؤل عن صواب رأي العالم مهما تلبسته الغرابة، ولا يُجيزون لأنفسهم الاعتراض عليه أو انتقاد رأي يراه، بل يسلّمون عقولهم ويستسلمون لكل ما يسمعون،

فإذا أخطأ (ومنِّ الناس لا يخطئ؟) تابعوه على الخطأ كما يتبعونه على الصواب، ولو جاءهم من ينصحهم ردّوه وخاصّموه لأن الانتصار لشيوخهم هو الفريضة وليس الانتصار للحق والدين، ولأنهم أصلاً لا يحبون التفكير ولا يُجيزون لأنفسهم مناقشة ما يسمعون.

الجهة المقابلة فيها فريق لا يُقْبِلُ للعالَمَ عَثَرَةً ولا يُجِيزَ لِهِ الْخَطَأُ، فإذا زَلَّ فِي مَسَأَلَةٍ أَوْ احْتَارَ فِي مَوْقِفٍ نَبْذُوهُ وَتَرْكُوهُ وَقَاطَعُوهُ عَلَمَهُ وَكَتَبَهُ وَأَحَادِيثَهُ جَمِيعاً، كَأَنَّهُ لَمْ يَحْسُنْ قَطْ وَكَأَنَّهُ لَا فَضْلَ لَهُ فِي دُنْيَا وَلَا دِينَ.

* * *

لَقَدْ انتَصَفَتْ سَنَةُ الثُّورَةِ الثَّانِيَةِ وَمَرَّ عَلَيْهَا مِنَ الْأَهْوَالِ إِلَى الْيَوْمِ مَا يَكَادُ اللَّيلُ يُشَيِّبُ مِنْ فَظَاعَتِهِ فَيُنَقْلِبُ سَوَادَهُ الْبَهِيمَ بِيَاضَأَنْقِيَاً، فَلَمْ يَبْقَ عَذْرٌ لِقَاعِدٍ وَلَمْ يَبْقَ عَذْرٌ لِسَاكِتٍ.

وَإِذَا كَانَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ أَبْنَاءِ الْوَطَنِ عَمَلٌ وَوَاجِبٌ مَنْوَطٌ بِهِ فَإِنَّ أَثْقَلَ تِلْكَ الْأَعْمَالِ هُوَ مَا نَيْطَ بِالْعُلَمَاءِ لَأَنَّهُمْ قَادِهَا الْأَمَّةُ وَوَرَثَةُ الْأَبْنَيَاءِ، فَإِذَا لَمْ يَقُودُوهَا فِي هَذِهِ الْلَّيَالِي الْحَالَكَاتِ فَمَنْ يَقُودُهَا؟ وَإِذَا لَمْ يَرْسِمُوا طَرِيقَ لَهَا فَمَنْ يَرْسِمُهُ لَهَا؟ وَلَا رِيبٌ أَنَّ الْعَالَمَ يَنْقُلُ حَمْلَهُ وَيَكْبُرُ وَاجْبَهُ كَلَمَا ارْتَفَعَ ذِكْرُهُ وَكَثُرَ مَتَابِعُهُ. فَمَنْ أَجْلَ ذَلِكَ طَالِبَتِ الْأَمَّةُ عَلَمَاءَهَا بِتَصْدِيرِ الثُّورَةِ وَالْحَتْتِ فِي الْمَطَالِبِ، وَمَنْ أَجْلَ ذَلِكَ نَصْحَ النَّاصِحُونَ وَانْتَقَدَ الْمُنْتَقَدُونَ. وَإِذَا لَمْ يَكُنْ هَذَا الْفَلَمُ وَاحِدًا مِنَ النَّاقِدِينَ وَالنَّاصِحِينَ وَالْمَطَالِبِينَ فَمَا قِيمَتُهُ وَبِأَيِّ حَجَةٍ يَرِدُ صَاحِبُهُ عَلَى اللَّهِ؟

قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: هَذَا كَلَهُ حَسْنٌ مَفْهُومٌ، وَلَكِنْ لَمَّا تَرَكَ الْبَوْطِيَ وَنَصَحَ النَّابِلِسِيَ، وَالْأَوْلَى بِالنَّقْدِ وَالْتَّذْكِيرِ؛ وَالْجَوَابُ سَهْلٌ قَرِيبٌ، فَإِنِّي تَرَكَ الْبَوْطِيَ فَلَمْ أَتُعْرِضْ لَهُ بِحْرَفَ لَأَنِّي رَأَيْتُهُ أَهُونَ عَلَى اللَّهِ مِنْ جَنَاحِ بَعْوَضَةٍ، وَلَقَدْ فَضَحَهُ اللَّهُ وَهَنَّكَ سَتْرَهُ فَلَا أَبَالِيهُ وَلَا يَبَالِيهُ غَيْرِي مِنَ النَّاصِحِينَ. وَأَمَّا النَّابِلِسِيُّ فَإِنِّي أَحَبَّهُ فِي اللَّهِ وَأَقْدَرُ فَضْلَهُ، وَقَدْ أَقْرَرْتُ بِذَلِكَ فِي تَعْلِيقِي الصَّغِيرِ عَلَى كَلْمَتَهُ (الَّتِي انتَقَدَنِي بَعْضُ مُحَبِّبِيهِ بِسَبِّهِ) فَوَصَّفَهُ بِأَنَّهُ "عَالَمٌ احْتَرَمَنَا وَأَحَبَّنَا"، وَهُوَ غَنِيٌّ عَنْ شَهَادَتِي بِمَا أَلْقَى اللَّهُ لَهُ فِي الْفُلُوْبِ مِنْ قَبْوُلٍ.

مَثَلُ الشَّيْخِ رَاتِبٍ لَا يَضُرُهُ أَنْ يَعْاتِبَهُ مَثَلِي وَلَا يُغَضِّبُهُ أَنْ يَسْمَعَ النَّصِيحَةَ مِنْ تَلَامِذَتِهِ، فَإِنَّ الْكَبِيرَ لَا تَصْغِرُهُ نَصِيحَةٌ صَادِقَةٌ وَلَا يَؤْذِيهُ عَتَابٌ مَؤَدِّبٌ، بَلْ هُوَ يَزْدَادُ رَفْعَةً بِقَبْوُلِ النَّقْدِ وَسَمَاعِ النَّصِيحَةِ. لَذِكَرِ أَقْوَلُ لِلَّذِينَ انتَدَبُوا أَنفُسَهُمْ لِلِّدَافَاعِ عَنْهُ: وَفَرَّوْا عَلَى أَنْفُسِكُمُ الْعَنَاءِ، فَإِنَّ لِلشَّيْخِ لِسَانًا أَمْضَى مِنْ أَلْسِنَتِكُمْ وَقَلْمَانًا أَبْلَغَ مِنْ أَقْلَامِكُمْ. لَوْ أَرَادَ الرَّدُّ لِرَدِّ بِنَفْسِهِ، وَلَكِنَّهُ عَلِمَ أَنِّي مُحَبٌ صَادِقٌ نَاصِحٌ، لَسْتُ عَدُوًا وَلَا مُبْغِضًا وَلَا مُنْكِرًا لِعِلْمِهِ وَفَضْلِهِ، وَأَنِّي لَا أَرِيدُ إِلَّا الْخَيْرَ لِهِ وَلِشَعْبِ سُورِيَا وَلِأَمَّةِ الْمُسْلِمِينَ.

* * *

إِنَّ الَّذِينَ يَهُنُّ مِثْلَ الْعَاصِفَةِ يَدَافِعُونَ عَنْ شَيْخِهِمْ – إِذَا تَعَرَّضَ لِلنَّقْدِ شَيْخُهُمْ – يَذَكَّرُونِي بِأَبْوَاقِ السَّلَاطِينِ، وَقَدْ عَرَفْنَا مِنْهُمْ فِي سُورِيَا الْكَثِيرُ وَنَعْرَفُ غَيْرَهُمْ فِي كُلِّ بَلْدَةٍ مِنْ بَلَادَنَا الْمِيَةِ الْمُتَخَلِّفَةِ فِي رَكْبِ الدِّينِ وَرَكْبِ الدِّينِ.

مَا إِنْ يَوْجَهَ أَحَدُ الصَّادِقِينَ نَصِيحَةً أَوْ انتِقَاداً لَطِيفاً مَؤَدِّبَا لَوْلَيَ الْأَمْرِ الْحَاكِمِ بِأَمْرِ اللَّهِ حَتَّى يَثُورَ الْمُنَافِقُونَ ثُورَانَ الْبَرْكَانِ وَيَشْحَنُوا الصَّحَفَ وَالْمَجَالَاتَ وَالْمَوَاقِعَ وَالْمَنَتِدَاتَ وَالْفَضَّائِيَّاتَ بِهَذِيَانِ مُمَلِّ سَخِيفٍ، ظَاهِرُهُ الدِّفَاعُ الْمُنْصَفُ وَحَقِيقَتُهُ النَّفَاقُ وَالْكَذْبُ وَالْتَّدَلِيسُ، وَهُمْ يَسَاهِمُونَ – بِعَمَلِهِمْ هَذَا – بِالسَّهَمِ الْأَكْبَرِ فِي صُنْعِ الْمُسْتَدِينَ وَالْمُطَوَّغِيَّاتِ وَيَحْمِلُونَ وَزْرَهُمْ وَإِثْمَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْحِسَابِ. هَذَا الَّذِي يَصْنَعُهُمْ "أَبْوَاقُ" السَّلَاطِينِ يَصْنَعُ مِثْلَهُ "أَبْوَاقُ" الْمَشَايِخِ وَالْعُلَمَاءِ مِنْ حِيثُ لَا يَشْعُرُونَ.

الشَّائِعُ أَنَّ الْإِتَّابَ الْأَعْمَى وَتَعْصِبَ الْتَّلَمِيذَ لِشَيْخِهِ آفَةُ عَامَةٍ فِي أَوْسَاطِ الْمُتَصَوِّفِينَ، وَهَذَا صَحِيحٌ، وَلَكِنَّهُ لَيْسَ حَكْرًا عَلَيْهِمْ دُونَ غَيْرِهِمْ، فَقَدْ لَاحَظْتُ أَنَّهَا مُوْجَدَةٌ حِيثُمَا وُجِدَ شَيْخٌ لَهُ تَلَامِذَةٌ وَمُرِيدُونَ، لَا يَسْلُمُ مِنْهَا إِلَّا الْفَلَةُ مِنَ الْعُقَلَاءِ وَالْمُنَصَّفِينَ الَّذِينَ يَحْكُمُونَ عَلَى الرِّجَالِ بِالْحَقِّ لَا يَحْكُمُونَ عَلَى الْحَقِّ بِالرِّجَالِ، وَالَّذِينَ لَا تَسْلُبُ عُقُولَهُمْ وَلَا تَعْمِي بِصَائِرَهُمْ شَهَرُ الْمُشْتَهِرِيْنَ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالدُّعَائِةِ. لَا تَلُومُوا الصَّوْفِيَّيْنَ وَحْدَهُمْ، حَتَّى السَّلَفِيُّونَ يَتَعَلَّقُونَ بِمَشَايِخِهِمْ تَعْلِقًا مَبَالِغًا فِيهِ وَيَتَابُونَهُمْ بِلَا تَفْكِيرٍ وَلَا اعْتَرَاضٍ، وَرِبِّما ذُكِرَ أَسْمَ الْعَالَمِ مِنْ عُلَمَائِهِمْ فَخَشَعُوا لَهُ وَخَضَعُوا كَمَا يَصْنَعُ طَالِبُ الْعِلْمِ مَعَ أَكَابِرِ الْمُجَتَهِدِينَ،

وإنما هو ناقل لم يجتهد قط ولم يزد على حفظ المسائل وروايتها ولا يعدو أن يكون واحداً من علماء الرواية الذين يملؤون الدنيا، ثم إذا ما خالفهم عالم كبير ومجتهد أصولي خبير وجاء بفتوى لم يألفوها فإنهم يرددونه أو يبعدونه وينكرون عليه أسوأ نكير!

لقد آن لللامة أن تتعافي من هذه الآفة وأن يتابع عامتها علماءهم متابعة عاقلة مبصرة، فإذا أخطأ العالم قوموه، وإذا قصر انتقدوه، وإذا ضيق واسعاً أو عسر يسيراً ناقشوه وحاججوه، وإذا باع نفسه للسلطان نصحوه ثم هجروه وقاطعوه... على أنه لا ينبغي للنصيحة والانتقاد أن يخرجها عن حدود الأدب ولا أن ينقلها إلى هجاء وتلاؤم. وأهم من ذلك كله أن لا يتسبب الخطأ يخطئه العالم (ولا الاثنان ولا العدد من الأخطاء) في رفضه ونبذه جملة واحدة، بشرط أن يكون العالم عالماً حقاً وأن يكون مخلصاً صادقاً، فإذا كان متعالماً وليس له من العلم شيء لم يستحق الاحترام ووجب كشفه لئلا يُفسد على الناس دينهم، وإذا كان خبيثاً سيئ النية ممن يشترون الدنيا بالدين ويدلّسون على العامة ويتبّعون السلاطين فإن فضحه من أوجب الواجبات ومن حق الجاهلين على العالمين.

* * *

يا أيها الكرام: إن الرد على العالم -بأدب وعلم- من خصائص أمة محمد صلى الله عليه وسلم ومن أعظم مزايا أهل السنة والجماعة، فلا تحرمونا هذه المزية ولا تجعلونا مثل الشيعة.

هل تعلمون ما الفرق بيننا وبين الشيعة؟

أعرف أن بيننا وبينهم من الفروق كما بيننا وبين اليهود، وإنما قصدت موضوعنا الذي نبحثه هنا. قدس الشيعة علماءهم وسلّموهم عقولهم فلعلهم يلعبوا بها كما يلعب لاعبو الكرة بالكرة في الملعب، فضلوا وأضلوا ولم يجدوا من يقول لهم: من أين لكم هذا؟ أما المسلمين من أهل السنة فقد أراد الله أن يحفظ لهم دينهم فعلمهم أن لا يقدّسوا أحداً من المخلوقات وأن لا يمنحو العصمة أحداً من الخلق، فلا يقدّسون إلا الله ولا معصوم عندهم إلا رسول الله صلى وسلم عليه الله، فإذا أخطأ العالم فيهم ردوا عليه خطأه وقوّموه وسدّدوه، وبذلك تتحقق لامة محمد -عليه الصلاة والسلام- واحدة من خصائصها العجيبة: إنها تنفي عن نفسها الخبر وتقى دينها من التحرير بعملية رقابية جماعية تشتراك فيها جيوش من العاملين المخلصين، من العلماء ومن العامة على السواء.

ولعل هذا هو معنى قوله تبارك وتعالى في كتابه الحكيم: {والمؤمنون والمؤمنات بعضُهم أولياءُ بعضٍ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر}، فذكر الجنسين (المؤمنين والمؤمنات) وأطلق الوصف ولم يقتصره على العلماء دون العامة. ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: "إن الله قد أجار أمتي أن تجتمع على ضلاله" (وهو حديث حسن بمجموع الطرق كما قال الألباني) وقوله: "يحمل هذا العلم من كل خلف عدوه، ينفون عنه تحريف الغالبين وانتقام المبطلين وتأويل الجاهلين" (حديث مرسلاً روياً موصولاً من طريق جماعة من الصحابة، وصحح الحافظ العلائي بعض طرقه).

* * *

الخلاصة:

ما يجمعنا بعلمائنا هو العلم والإخلاص من طرفهم والمحبة والتقدير والنصيحة من طرفنا، فلا نبالغ في تمجيلهم وتعظيمهم لدرجة التنزيه والتقديس (ولا هم يقبلون منا ذلك)، ولا نقابل خطأهم وقصورهم بالذم البذيء والهجاء القاسي والمقاطعة الكاملة، بل بالتذكير والنصيحة اللطيفة المؤدية، إلا أن يكون الواحد منهم متعالماً بلا علم، أو يكون علمه للدنيا لا للآخرة

وللسلطان أو للمال أو للجاه لا لله. أما ما نريده من علمائنا وما نظن أنه الواجب عليهم والعمل الذي يرفعهم في الدنيا والآخرة فسوف أفصّله في مقالة آتية إن شاء الله.

المصادر: